مفهوم المعرفة عند اسبينوزا

Spinoza's concept of knowledge

إعداد

فهد بن حذيفة بن عبدالله الطوالة

Fahd Hudhayfah Abdullah Altoaala

Doi: 10.21608/ajahs.2024.338251

استلام البحث	**٢٠٢٣/١٠/٣**
قبول البحث	**١٣ / ١٠ / ٢٠٢٣**

الطوالة، فهد بن حذيفة بن عبدالله (٢٠٢٤). مفهوم المعرفة عند اسبينوزا. ***المجلة العربية للآداب والدراسات الإنسانية***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٨(٢٩) يناير، ٢٢٩ – ٢٥٠.

http://ajahs.journals.ekb.eg

مفهوم المعرفة عند اسبينوزا

المستخلص:

في دراستي حول مفهوم المعرفة عند أسبينوزا، استكشفت تفسيراته المعقدة والفلسفية للمعرفة وكيف يرتبط ذلك بفلسفته الشاملة للوجود. قدمت أسبينوزا منظورًا فريدًا عن المعرفة وعلاقتها بالطبيعة البشرية والله. بحثت في أفكاره حول تصنيف المعرفة، حيث اقترح أن المعرفة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع رئيسية: المعرفة الحسية والمعرفة العقلية والمعرفة الإلهية. اعتبر أسبينوزا أن المعرفة الحسية تأتي من خلال الاستدلال بالحواس والتجربة الشخصية، بينما المعرفة العقلية تتعلق بالتفكير والاستدلال العقلي. أما المعرفة الإلهية، فهي المعرفة التي تأتي من الله أو من خلال الالتفات إلى الإلهية الكونية. وأكثر ما لفت انتباهي في نظرة أسبينوزا للمعرفة هو التركيز الشديد على الوجود والأفكار الإلهية. كان يرى أن المعرفة الحقيقية لا تكتسب من خلال الحواس والتجربة العادية فقط، بل من خلال الاتصال الروحي مع الكون والله. وفقًا لأسبينوزا، المعرفة الحقيقية تتطلب اندماجًا عميقًا للروح مع الإلهية، حيث يصبح المعرف والمعرفة واحدًا مع الوجود الإلهي. تطرقت أيضًا إلى مفهوم الضرورة في العقلية الإلهية عند أسبينوزا. كان يعتقد أن المعرفة الحقيقية تتطلب فهمًا للضرورة الإلهية وترتيب الأفكار والأشياء في الكون. وفقًا له، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى المعرفة الحقيقية إلا إذا كان قادرًا على فهم الأسباب الأولية والعلاقات الضرورية التي تحكم الوجود. وفي الختام، استنتجت أن أسبينوزا يروج لفكرة أن المعرفة الحقيقية ليست مجرد مجموعة من الحقائق والمعلومات، بل هي وضع وجودي يتطلب تجاوز الحواس والعقل البشري والالتفات إلى الكون والإلهية. هذه الدراسة أثرت في تصوري للمعرفة وأعطتني رؤية أعمق لمفهومها وغايتها في الحياة البشرأسبينوزا هو فيلسوف هولندي من القرن السابع عشر، وعرف بأعماله الفلسفية العميقة والمؤثرة في مجال المعرفة واللاهوت. تفحصت في دراستي مفهوم المعرفة عند أسبينوزا وكيف يندرج ضمن فلسفته الشاملة للوجود.

Abstract:

In my study on the concept of knowledge in Spinoza's philosophy, I explored his complex and philosophical interpretations of knowledge and how it relates to his comprehensive philosophy of existence. Spinoza presented a unique perspective on knowledge and its relationship to human nature and God. I delved into his ideas about the classification of knowledge, where he proposed that knowledge can be divided into three main types: sensory knowledge, intellectual

ISSN : *2537-0421* eISSN : *2537-043X*

knowledge, and divine knowledge. Spinoza considered sensory knowledge to come through reasoning based on the senses and personal experience, while intellectual knowledge is related to thinking and rational inference. As for divine knowledge, it is the knowledge that comes from God or through turning towards cosmic divinity. What caught my attention the most in Spinoza's view of knowledge is the intense focus on existence and divine ideas. He believed that true knowledge is not acquired solely through the senses and ordinary experience but through spiritual connection with the universe and God. According to Spinoza, true knowledge requires a profound fusion of the soul with the divine, where the knower and the known become one with divine existence.I also touched upon the concept of necessity in Spinoza's divine mind. He believed that true knowledge requires an understanding of divine necessity and the arrangement of ideas and things in the universe. According to him, humans can only attain true knowledge if they are capable of understanding the primary causes and necessary relations that govern existence.
In conclusion, I inferred that Spinoza advocates the idea that true knowledge is not merely a collection of facts and information but a state of being that requires transcending the senses and the human mind and turning towards the universe and divinity. This study has influenced my perception of knowledge and provided me with a deeper understanding of its concept and purpose in human life. Spinoza is a Dutch philosopher from the 17th century, known for his profound and influential philosophical works in the fields of knowledge and theology. In my study, I examined the concept of knowledge in Spinoza and how it fits into his comprehensive philosophy of existence.

تمهيد:

للفلسفة فروعٌ عِدة، وأشكالٌ متنوعة، ومِن فُروعها ما يُسمّى بِنظرية المعرفة، والتي تهدف إلى البحث في كُلّ ما يتعلّق بِمَواضيع المعرفة، مثل طبيعة المعرفة الإنسانية، بتعريفها، واتّصافها بالصّدق أو الكذب، وكذلك البحث في إمكان

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

المعرفة، ومصادرها التي تتمُّ بِوَاسطتها طريقة اكتسابها، وأيضاً البحث في مجالات المعرفة الْمُختلفة، وبالتالي فالمعرفة تُعدُّ أُسَّاً مُهمّاً في المسائل الكِبار التي يتكلّم فيها الفلاسفة مُنذ القِدم؛ فقد كانت مَوضع اهتمامٍ لدى أفلاطون[١] في بيان تعريفها، وذِكْرِ سِماتها، ومِن بعده أرسطو، وفلاسفة العصور الوسطى المسيحيّة، ومُفكّروا الإسلام.

لكنّ السّعي في جعل المعرفة كنظريّةٍ مُستقلّةٍ ومُتميّزة، كان بشَكْلٍ أوضح في العصر الحديث مُنذ دِيكارت، ولوك[٢]، ومَن جاء بعدهما، وهكذا صار الفلاسفة يعدُّون المعرفة مُنطلقاً لِلرُّؤية الفلسفيّة في الحُكم على الأشياء، ولينطلقوا مِن خِلالها بعد ذلك في عَرْض فلسفاتهم الْمُتنوّعة[٣].

ولا شكّ أنّ المعرفة الإنسانيّة مُتنوّعة المصادر، ومُختلفة الأدوات؛ فأحياناً تكون المعرفة حِسّيّةً خالصة، وذلك إذا تعلّقت بالمحسوسات، كرؤيتنا للنّار مثلاً، وأحياناً تكون المعرفة عقليّةً خالصة، وذلك إذا تعلّقت بالمعاني والمعقولات المجردة، مثل عِلْمِنا بِأنّ النّقِيضَيْن لا يجتمعان أبداً، وأحياناً تجمعهما المعرفة؛ فيُقال: هذه المعرفة حِسّيةٌ عقليّةٌ معاً، كالعِلم بِالمعارف التجريبيّة، مثل أنّ النّار مُحْرِقَة[٤].

ومِمّن ساهم مِن الفلاسفة في عرْض رُؤيته الفلسفيّة حول مسألة المعرفة هو اسبينوزا، حيث قسّم المعرفة إلى ثلاثة أقسام، مُبيّنا الْمُراد بِكُلّ قِسم؛ لِيُوضّح مِن خِلالها موقفه من طبيعة المعرفة البشريّة، ومدى ارتباطها بِفِكرة الله، بِوَصفِه أساس نُشُوء المعرفة وتكوينها، وكذلك الارتباط الوثيق بين المعرفة والعقل؛ مِمّا يتطلّب

---

[١] فيلسوف يوناني، ولد عام ٤٢٧ ق.م ، وهو فيلسوف مِثالي، وتلميذ لسقراط، ومؤلِّف أكثر مِن ثلاثين محاورة فلسفيّة، وهو مؤسّس المِثاليّة الموضوعيّة، وفي تفسيره للوجود أنشأ نظريّة "الْمُثل"، وقد لعبت تعاليم أفلاطون دَوراً هامّاً في التّطور اللّاحق للفلسفة المِثاليّة، وقد مات عام ٣٤٧ ق.م. الموسوعة الفلسفية، مِن وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السُّوفياتيّين، بإشراف: روزنتال ، يُودين ص٤٠.

[٢] جون لوك، فيلسوف مادّي إنجليزي، ولد عام ١٦٣٢م، أخرج في مُؤلّفه الرئيسي "مقالة في الفهم البشري" نظرية التّجريبيّة المادّية؛ فكان رافضاً المذهب الدّيكارتي في الأفكار الفِطريّة، وأعلن أنّ الخبرة هي المصدر الوحيد لِكُلّ الأفكار، ومات عام ١٧٠٤. الموسوعة الفلسفية، مِن وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السُّوفياتيّين، بإشراف: روزنتال ، يُودين ص٤١٦ ، معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي ص٥٩٨.

[٣] انظر: نظرية المعرفة عند مُفكّري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، محمود زيدان ص٩ ، ١٧١.

[٤] انظر: الوحي والإنسان - قراءة معرفية، محمد السيد الجليند ص٤٦.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

جُهداً كبيراً في استصلاح العقل، وذلك في تمييز أدواته المعرفيّة التي يكون العقل مُرتَهَناً لها، إذ إنّ القوّة الفِكريّة نابِعةٌ مِن القوّة العقليّة[٥].

وبِناءً على ذلك فسيكون الحديث هُنا حول مفهوم وتاريخ نظرية المعرفة عُمُوماً، ومفهوم المعرفة عند اسبينوزا على وجه الخُصُوص، بِبيان رُؤيته الفلسفيّة الخاصّة بها، مع الإشارة إلى أنواع المعرفة من وجهة النّظر الاسبينوزيّة، وسيتمُّ ذلك مِن خِلال ثلاثة مطالب:

المطلب الأول :تاريخ ومفهوم نظرية المعرفة

لا يخفى ما تحتلُّه نظرية المعرفة مِن مكانةٍ عاليةٍ في عِلم الفلسفة؛ إذ هي أحد فُروع الفلسفة ومجالاتها، ولا تزال إلى الآن هذه النّظرية بِجميع مُكوّناتها محلّ عِناية كثيرٍ مِن الفلاسفة، غير أنّه عند سبْر الجذور الْمُكوّنة لنظريّة المعرفة يُلاحظ أنّها ضاربة الجُذور في القِدم؛ فإنّ بدايات الفلسفة عند الفلاسفة اليونانيّين كانت محصورةً على عالَم الطبيعة فقط، في أصل الكَون ومادّته، ومِن ثمّ جاء السُّوفسطائيُّون[٦] ونقلوه مِن عالم الطبيعة إلى عالَم الإنسان؛ فظهرت معهم أوّل مسائل نظريّة المعرفة، عندما أنكروا الحقائق؛ فعارضهم فلاسفة أُخَر وردُّوا عليهم، مثل أفلاطون، مُؤكّدين على قِيمة العقل ومكانته كمصدرٍ أساسٍ للمعرفة، ومِن بعدهم جاء الرُّواقيُّون؛ فأكّدوا المعرفة الحسّية، وقالوا بِيَقِينِها.

ولَمَّا جاءت العصور الوسطى كان فلاسفتها مُتأثّرين بالفلاسفة اليونانيّين مِن جِهة، وبِالدّيانة المسيحية مِن جِهةٍ أُخرى؛ فظهرت عندها مُشكلة العقل والنّقل، وأيُّهما يُقدّم؛ فخرج منهم مَن يُنادي بتقديم الوحي، وأنّ العقل لا يُمكنه إطلاقاً معرفة الحقيقة

---

(٥) انظر: درجات المعرفة عند اسبينوزا، الدكتورة سوسان إلياس ص٢١٥ ، مجلة جامعة دمشق المجلد (٣٢)، العدد الأول، ٢٠١٦م.

(٦) أصحاب مذهب السَّفْسَطَة، وهي قياسٌ مُركّبٌ من الوهميّات، والغرض منه تغليطُ الخصم، وعليه فالسوفسطائيّون هُم مُنكروا الحسيّات والبديهيّات، وهم مجموعةٌ من المعلّمين من فلاسفة اليونان يقومون بِتعليم الناس فُنون الخطابة، والجدل، وكانوا يفتخرون بِمقدرتهم على تأييد الرأي، ونقيضه؛ فلم يكن هدفهم الوصول إلى الحقيقة، وزعيمهم بروتاغوراس الذى ولد سنة (٤٨٠ ق. م)، ونظريتهم تقوم على أنه ليس هناك وجودٌ خارجيٌّ مُستقِلٌّ عمّا في أذهاننا؛ فما يظهر للشخص أنّه الحقيقة يكون هو الحقيقة له؛ فإذا رأى السراب ماءً فهو عنده حقيقة ماء. انظر: التعريفات، الجرجاني ص١١٨، لوامع الأنوار البهية، السفاريني ٢/ ٤٤٤، قصة الفلسفة اليونانية، زكي نجيب محمود وأحمد أمين ص٦٥ – ٦٨، تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم ص٦٧ ، مدخل إلى نظرية المعرفة، أحمد الكرساوي ص٣٥.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

بِمُفرده، بل يرى ذلك مِن عمِل النصّ الْمُقدّس فقط، مثل ما حصل مِن أُوغسطين[٧]، حين قال كلمته الشّهيرة: "آمِن كي تعقِل"، وبالتالي سعى لِأَنْ يُطوّع العقل في الدّفاع عن الإيمان.

وأمّا الفلاسفة الْمُنتمون لِلإسلام؛ فلم يكونوا بِمعزلٍ عن تناول بعض المسائل المتعلّقة بِنَظريّة المعرفة، حيث كان تأثُّرهم بالفلسفات القديمة واضحاً وجليّاً؛ فكان البحث حينها مُنصبَّاً على التّوفيق بين الدّين والفلسفة، مثل ما حصل من الفارابي[٨] في كِتبه "الجمع بين رأي الحَكيمين"، ويقصد بهما أفلاطون، وأرسطو، مُحاولاً التّوفيق بين آرائِهما، وتبِعه في ذلك ابنُ رُشدٍ ساعِياً في الجَمع بين الدّين والفلسفة في كتابه "فصل المقال فيما بين الشريعة والحِكمة من الاتّصال".

وانتقلت هذه المسألة الكبيرة في العِلاقة بين العقل والوحي إلى عُلماء الإسلام، على اختلاف طوائفهم، وكُلٌّ مِنهم أدْلى بِدَلوه فيها، مُؤكّدين أهميّة الوحي في كَونِه مَصدراً رئيساً لِلمعرفة، بِجانب الحِسّ والعقل، لكنّ البعض أخطأوا في تقديمهم العقل على الوحي عند التّعارض بينهما، وأمّا أهل السُّنّة فأكّدُوا عدم وُجود تعارضٍ إطلاقاً بين العقل الصريح والنّقل الصحيح، حتى أفرد ابن تيمية[٩] مُؤلّفاً خاصّاً بِذلك، كما في كتابه "درء تعارض العقل والنقل"[١٠].

---

[٧] القدّيس أوغسطين، ولد عام ٣٥٤م، وهو أسقف أحد المدن في شمال أفريقيا، ولاهوتي مسيحي، وفيلسوف متصوف، اعتنق آراء قريبة من الأفلاطونية الجديدة، وكان له أثر كبير على التطوّر اللّاحق للاهوت المسيحي، ومات عام ٤٣٠م. الموسوعة الفلسفية، مِن وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السُّوفياتيّين، بإشراف: روزنتال ، يُودين ص٦٧، وانظر: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، يوسف كرم ص٢٥.

[٨] محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابيّ، ولد في فاراب (على نهر جيحون) سنة ٢٦٠ه، ويعرف بالمعلم الثاني؛ لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول)، ويُعدُّ الفارابي من أكبر الفلاسفة الْمُنتمين إلى الإسلام، وقد انتقل إلى بغداد فنشأ فيها، وألّف بها أكثر كُتبه، ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة ابن حمدان، له نحو مئة كتاب، ومن أشهرها كتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة"، قال الذهبيُّ عن مُصنفاته: "لَهُ تَصَانِيْفُ مَشْهُوْرَةٌ، مِنِ ابْتَغَى الهُدَى مِنْهَا، ضلَّ وَحَارَ، مِنْهَا تَخرَّج ابْنُ سينَا، نَسْأَل اللهَ التَّوفيق"، وقد توفي بدمشق سنة ٣٣٩ه. الأعلام، الزركلي ٧/ ٢٠، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٥/ ٤١٦، وانظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان ٥/ ١٥٣.

[٩] شيخ الْإِسْلَام، نادرة الْعَصْر، ذُو التصانيف الباهرة، والذكاء المفرط، تَقِيّ الدّين، أَبُو الْعَبَّاس، أَحْمد بن عبد الْحَلِيم بن عبد السَّلَام النميري الْحَرَّانِي، مولده فِي عَاشر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ بِحَرَّان، وتحوَّلَ بِهِ أَبُوه إلى دمشق؛ فَنَبَغَ، واشتهر، وطُلِبَ إلى مِصْر؛ فَقَصَدَهَا، ثُمَّ عاد إلى دمشق، ومات مُعتَقَلاً فى قَلْعَتِها، ولهُ مُؤَلَّفاتٌ كثيرةٌ جِدَّاً، مِنها (الفتاوى)، (وكتاب الإيمان)، (ومِنهاج السُّنَّة)، (ودَرءُ تعارض العقل والنّقل)، وغيرها

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

ولَمَّا جاء العصر الحديث احتلّت نظرية المعرفة منزلةً عاليةً عند مُعظم الفلاسفة، بل صارت أحد سِمات الفلسفة الأُوروبيّة الحديثة، وجعلوها فرعاً مُستقلاً ومُتميّزاً يُشكّل أحد فُروع الفلسفة ومجالاتها، ويُعزى إدخال اصطلاح المعرفة في الفلسفة إلى الفيلسوف الاستكلندي "فيرييرّ"[١١] في كِتابه "سنن الميتافيزيقا"، حيث قسّم الفلسفة إلى مبحث الوجود (الانطولوجي)، ومبحث المعرفة (الابستموولوجي)[١٢]، وقد كان ابتداؤُها مِن "ديكارت"، لكنْ تكامل البحث فيها على يَدِ "جون لوك" في كِتابه: "مقالةٌ في العقل البشري"، والذي يُعدُّ بِحقٍّ أوّل بحثٍ عِلميّ مُنظّمٍ يقوم بِفَحص ودِراسة أصل المعرفة، وماهيّتها، وحُدودها، ودرجة اليقين فيها[١٣]، ومِن خَلْفِهِم أغلبُ الفلاسفة الْمُحدَثين والْمُعاصرين، حتى عدّها بعض الباحثين هي المشكلة المركزيّة في العصر الحديث الذي يُمكن أن يُسمّى بِالعصر الذّهبي لِنظريّة المعرفة[١٤]، ولا تزال الكُتب حتى الآن تُؤلّف في هذه النّظرية الكبيرة، بجميع مباحثها وسِماتِها الْمُتنوّعة[١٥].

الكثير، توفي في دمشق سنة ٧٢٨هـ، وكان يَوْمًا مشهوداً لم يُعْهَد مِثْلُه بِدِمَشْق، وَلَا يُمكِن أَحَدٌ حَصْرَ مَن حضَر الْجِنَازَة. انظر: ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام، الذهبي ص٢٢، الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي الكرمي ص ٦٣، الأعلام، الزركلي ١/ ١٤٤، ولاستيعاب طرفٍ من جوانب سيرته يُنظر: العقود الدريّة في ذِكْر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ابن عبدالهادي، ويليه: الأعلام العليّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، البزّار، تحقيق: علي بن محمد العمران، الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمعه ووضع فهارسه: محمد عزيز بن شمس وعلي بن محمد العمران، إشراف وتقديم: د. بكر أبو زيد.

[١٠] انظر: مدخل إلى نظرية المعرفة، أحمد الكرساوي ص٢٧ - ٣٢.

[١١] جيمس فريدريك استكلندي، ولد في أدنبره عام ١٨٠٨م، وتأثر بهيجل وكانط وشلنج، وهو مِثالي، ومات عام ١٨٦٤م. موسوعة الفلسفة والفلاسفة، عبدالمنعم الحفني ٢/ ١٠٥٥.

[١٢] انظر: الموسوعة الفلسفية، مِن وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السُّوفياتيّين، بإشراف: روزنتال ، يُودين ص٤٤٧.

[١٣] انظر: نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، عادل السكري ص٣٢ ، عِلماً بِأن هناك مِن الباحثين مَن يُؤكّد السّبق لِعلماء الْمُسلمين على الفلاسفة الغربيّين في إفراد بحث المعرفة بصورة مُستقلّة في كُتبهم، مثل ما ألّفه القاضي عبدالجبار في كِتابه "النّظر والمعارف" مُتحدّثاً فيه عن حدّ النّظر والعِلم، والمعرفة وطُرقها وحقيقتها، ومثل مقدمة كتاب "التّمهيد"، لِلباقلاني؛ ففيه حديثٌ عن العلم وأقسامه وطُرقه، وغيرهم كثير. وللمزيد يُنظر: نظرية الفلسفة بين القرآن والفلسفة، راجح الكردي ص٦٤ ، ٦٥.

[١٤] انظر: نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، فؤاد زكريا ص١٢.

[١٥] انظر: نظرية المعرفة عند مُفكّري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، محمود زيدان ص١٧١ -٢٣١.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

إنّ المِحور الرئيسي الذي يُبحث في نظرية المعرفة مِن النّاحية الفلسفيّة هو تسليط الضّوء حول مبادئ المعرفة الإنسانية، وطَبيعتها، والاطّلاع على مَنابع هذه المعرفة، وأدواتها، وكذلك عِلاقة الأشياء الْمُدرَكَة بِالقُوى التي تُدرِكها[١٦]، ولذا فقد تنوّعت عِبارات الفلاسفة والعلماء في عرض المجالات التي تُبحَثُ في نظرية المعرفة؛ فذهب بعضهم إلى أنّ الْمُراد بنظريّة المعرفة هي البحث عن طبيعة المعرفة، وأنواعها[١٧]، وذهب آخرون إلى أنّ نظريّة المعرفة هي مقدرة الإنسان على معرفة الواقع، ومصادر وأشكال ومناهج المعرفة والحقيقة، ووسائل بُلُوغها[١٨]، وقد عُرّفت نظريّة المعرفة مِن خِلال المعاجم الفلسفية بِكَونِها البحث في طبيعة المعرفة، وأصلها، وقِيمتها، ووسائلها، وحدودها[١٩].

وبالتالي فيمكن تحديد المسائل والْمُشكلات التي تدور عليها نظريّة المعرفة في ثلاث قضايا[٢٠]:

الأولى: مصادر المعرفة، وتبحث في طُرق المعرفة، مِن الحواسّ، والعقل، وعِلاقتهما بِبعضهما، وتبحث في طريق الوحي عند أصحاب الدّيانات، وطُرقٍ أُخرى، كالإلهام والكشف والحدس.

الثاني: طبيعة المعرفة، وتهدف أبحاثُها إلى بيان طبيعة العِلاقة بين الذّات العارفة والشيء المعروف.

الثالثة: حُدود المعرفة، وإمكانها، وتبحث في مدى قُدرة الإنسان على تحصيل المعرفة، وحُدود المعرفة الْمُمكنة لديه.

هذا بالطّبع مِن النّاحية الفلسفية، لكنّه مِن ناحية تصوّر المعرفة فهو مُرتبطٌ ميتافيزيقياً بِطبيعة الوجود، كما أنّ تشكُّله الاجتماعيَّ داخلٌ في إطار المجتمع، واتّصاله العقليُّ مُنسجمٌ مع أشكال النّشاط العقلي، وهو يرتكز منطقياً على قَواعد الاستدلال الصّحيح، كما أنّ له تعلُّقٌ نفسيٌّ بِعملية تكوين المعرفة، ومُحدِّده الأخلاقيُّ هو الالتزام بِالحقيقة[٢١].

ولا بُدّ مِن الإشارة إلى أنّ المعرفة مُرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا في ذِهْنِ الفيلسوف، بموضوع الاعتقاد، ويُقصد بالاعتقاد هنا الأفكار الْمُسيطرة على أيّ إنسانٍ؛ فتدفعه

---

[١٦] انظر: أسس الفلسفة، توفيق الطويل ص٧١.

[١٧] انظر: موسوعة الفلسفة والفلاسفة، عبدالمنعم الحفني ١/ ١٩.

[١٨] انظر: الموسوعة الفلسفية، مِن وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السُّوفياتيّين، بإشراف: روزنتال ، يُودين ص٤٤٧.

[١٩] انظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا ٢/ ٤٧٨.

[٢٠] انظر: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، راجح الكردي ص٦٦.

[٢١] انظر: نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، عادل السكري ص٢٠.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

لِلاهتمام بها، ورُبّما دفعت إلى سُلوكٍ مُعيَّنٍ بِناءً عليها، وقد يكون مِن الصُّعُوبة تفسيرُها أو تفسيرُ اعتقاده بها؛ "فالاعتقاد اقتناعٌ بِصِدْقِ قضيّةٍ ما لِأسبابٍ مَقبولة لدى المعتقد بها، حتى لو لم تكن مقبولةً لدى الأخرين.. فالاعتقاد يُعبّر عن وقائع تنشأُ عن تفاعلٍ بين الأشياء الخارجية وجِهازنا العصبي، وأنّنا نعرف هذه الاعتقادات معرفةً مباشرةً بِتَأمُّلٍ داخِليٍّ بسيط"[٢٢].

إنّ أُولى الْمُشكلات التي تُواجه النّاظر في نظريّة المعرفة هو تحديد تعريفٍ جَامِعٍ مَانِع، لكنْ في الحقيقة لم يتّفق الفلاسفة على حدٍّ مُعيّنٍ لِلمعرفة، حيث إنّ البحث في مجال المعرفة كان وما يزال مَثارًا لِلجدل بين الباحثين؛ فيربط بعضُهم بينها وبين عِلم المنطق؛ باعتبار أنّ الأخير يبحث في القوانين الصُّورية لِلمعرفة الإنسانيّة، وذهب آخرون إلى أنّ البحث في المعرفة فرعٌ مِن فُروع عِلم النّفس، يعرِض لِدِراسة العمليّات العقليّة التي يقوم بها العقل في تحصيل العلم، كالإدراك الحسّي، والتّخيل، والتّذكُّر، والتّفكير، وغير ذلك[٢٣].

وبِالتالي فثمّة تفسيراتٌ لِلمعرفة مُتعدِّدةٌ ومُتباينةٌ فيما بينها، لكن لَمَّا كان مِن أوائل مَن تكلّم في المعرفة هو الفيلسوف اليوناني أفلاطون؛ فإنّ مَعَالْمَ نظريّة المعرفة كانت بِدايتُها قد برزت عند هذا الفيلسوف؛ فذكر لها ثلاث تعريفات، أوّلها المعرفة بِمعنى الإحساس، أو الإدراك الحسّي، والثاني المعرفة بِمعنى الحكم الصّادق، أو الاعتقاد الصّادق، والثالث المعرفة بِمعنى الاعتقاد الصّادق الْمُؤيّد بِالبراهين؛ فزاد هنا التّبرير، أو التّسويغ[٢٤].

ولقد صار يُطلَق لفظ "المعرفة" عند الْمُحدَثين على معنيَين أساسيّين، أحدهما الفِعل العقليُّ الذي يتمُّ بهِ إرداك الظّواهر الموضوعيّة، أيْ عمليّة الإدراك، والثاني هو الفِعل العقليُّ الذي يتمُّ بهِ حُصُول صُورة الشيء في الذّهن، أيْ حاصل عمليّة الإدراك[٢٥]، وقد ذكر بعض الباحثين بِأنّ أغلب الْمُتخصّصين في البحث عن المعرفة قد اتّفقوا على أنّ الْمُراد بالمعرفة هي"الاعتقاد الصادق الْمُسوّغ"، بحيث أنّ الإنسان لا يعرف قضيّةً إلا إذا كانت صادقةً، وصار مُعتقداً لها، وكانت مُسوَّغةً عنده[٢٦]؛ فكأنّهم بِهذا التعريف قد التزموا تعاريف أفلاطون الثلاثة الْمُتقدّمة.

([٢٢]) نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، محمود زيدان ص ١٤، ١٧.

([٢٣]) نظرية المعرفة عند أرسطو، مصطفى النّشار ص٢٨.

([٢٤]) انظر: مدخل إلى نظرية المعرفة، أحمد الكرساوي ص١٥ ، ١٦.

([٢٥]) انظر: نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، عادل السكري ص٢٧.

([٢٦]) انظر: مدخل إلى نظرية المعرفة، أحمد الكرساوي ص١٧، ولِلعِلم فلم يكن هذا التّعريف محلّ إجماع العلماء والفلاسفة، بل هُناك مَن فَحَصه فحصاً عميقاً، مُعترِضاً عليه بِأنّ التّسويغ ليس كافياً لِتَحقيق المعرفة؛ إذ قد يكون تسويغاً مُزيّفاً، مِمّا جعل البحوث

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

وبعد استقراء بعض كلام الفلاسفة والعلماء في تحديد معنىً مُعيّنٍ لمُصطلح المعرفة؛ فإنّ ثاني المسائل الكِبار التّابعة لِنظرية المعرفة هو الكلام في إمكان المعرفة، بحيث هل في مقدرة الإنسان أن يُدرك الحقائق، مُطمئناً إلى إدراكه أم لا، وقد كان ظُهور الحديث في إمكان المعرفة مع السُّوفسطائيين في النّصف الأخير مِن القرن الخامس قبل الميلاد؛ فكان في ظُهورهم انتشار الشكّ بين النّاس؛ ليتطوّر فيما بعدُ خلال أنماطٍ مُتنوّعة، وهذا ما سبّب انقسام النّاس حول مسألة إمكان المعرفة إلى اتّجاهين رئيسيّين، أحدهما الاتّجاه الشكّي، الذي ينفي القّدرة على الوصول إلى معرفةٍ يقينيّة، وأخذوا يطعنون في العقل والحِسّ، وكانت جذوره تعود إلى الفلسفة اليونانيّة القديمة، وقد مارس الشكّ بعد ذلك عددٌ مِن الفلاسفة، ومِن أشهرهم في الفِكر الإسلامي أبو حامد الغزالي[٢٧] في أحد مَراحل حياته حتى شفاه الله مِن ذلك المرض الشكّي[٢٨]، ومِن أشهرهم أيضاً في الفلسفة الحديثة الفيلسوف ديكارت، مُبتدئين بالشكّ في الحواسّ، ثُمّ في الأُمور العقليّة، بل شكّ ديكارت حتى في وُجُود ذاته، وأمّا الثاني فهو الاتّجاه الاعتقادي الذي يُثبت الحقيقة، ويرى إمكان الوصول إليها[٢٩].

ولا ريب أنّ الشكّ في المعرفة، وإنكار الحقائق يُعدُّ مُخالِفاً لِلطبيعة البشريّة، إذ إنّ إمكان الوصول إلى المعرفة اليقينيّة هو مسألةٌ بديهيّة؛ فحقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها مُتحقّق، خِلافاً لمذهب السُّوفسطائيين، ولهذا شدّد بعض العلماء في مُناظرته لأمثال هؤلاء الشُّكّاك؛ بسبب إنكارهم لِلحقائق، يقول ابن تيمية: "مَن أنكر العُلوم الحسّية والضروريّة لم يُناظَر، بلْ إذا كان جاحداً مُعانداً عُوقِبَ حتى يعترف بِالحقّ"[٣٠]، ولم يزل العُلماء يردُّوا على مذهب الشُّكّاك الباطل، مبيّنين عَوَارَ هذا المذهب الْمُنحرف والْمُخالف لِلفطرة، والعقل، والحِسّ، ومِن أقوى ما أُورِدِ عليهم؛ فألجَمَهم، ماذ كَرهُ ابنُ

والمقالات الكثيرة تُقدَّم مِن قِبل الْمُختصّين في المعرفة في تطوير هذا التّعريف؛ لِيتفادى الانتقادات الْمُوجّهة إليه. انظر: المرجع السابق ص١٨، ١٩.

[٢٧] محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي، أبو حامد، ولد بخراسان عام ٤٥٠هـ، فيلسوف، مُتصوّف، له نحو مِائتي مُصنّف، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد، فالحجاز، فبلاد الشام، فمصر، وعاد إلى بلدته، ومن كتبه "إحياء علوم الدين" و "تهافت الفلاسفة" و "الاقتصاد في الاعتقاد"، ومات عام ٥٠٥هـ. الأعلام، الزركلي ٧/ ٢٢، وانظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٩/ ٣٢٢، طبقات الشافعية الكبرى، السبكي ٦/ ١٩١.

[٢٨] انظر: المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال، أبو حامد الغزالي ص٥١ ، ٥٢.

[٢٩] انظر: نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، محمود زيدان ص٢٧ - ٥٤، مدخل إلى نظرية المعرفة، أحمد الكرساوي ص٤٩ -٥٤ .

[٣٠] درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٣/ ٣١٠.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

حزم[٣١]بقوله: "وَالْقَوْلُ بِنَفْيِ الْحَقَائِق مُكَابَرَةٌ لِلْعَقْلِ والحسّ، وَيَكْفِي من الرَّد عَلَيْهِم أَن يُقَال لَهُم قَوْلكُم إِنه لَا حَقِيقَة لِلأشياء حقٌّ هُوَ أم بَاطِل؛ فَإِن قَالُوا هُوَ حقٌّ أثبتوا حَقِيقَةً مَا، وَإِن قَالُوا لَيْسَ هُوَ حَقًّا، أقرُّوا بِبُطْلَان قَوْلهم وَكَفَوا خَصْمَهَم"[٣٢]، ومِن هذا يتبيّن زيْف ذلك المذهب، وانحرافه؛ فلم يَبْقَ في مسألة إمكان المعرفة إلّا القول بإثبات الحقيقة، وإمكان الوصول إليها.

وبعد إثبات وجود حقائق مُطلقة يُمكن الوصول إليها، انتقل الكلام في نظريّة المعرفة بين الفلاسفة حول الحديث في مصادر المعرفة، حيث رأى بعضهم انحصارها في العقل وحده؛ ليكون الوسيلة في تحصيل المعارف، ومِن أبرز مَن يُمثّل هذا القول هو ديكارت، وتبعه عددٌ من الفلاسفة، كاسبينوزا وغيره، ورآى آخرون بِأنّ الحِسّ هو المصدر الرئيس لِلمعرفة، دُون العقل، ومِن أبرز مَن يُمثّل هذا القول هو جون لوك، وديفيد هيوم[٣٣]، وهُناك مَن جمع بين العقل، والحِسّ؛ لِيكونا مَصدرَين لِلمعرفة، ويُمثّل هذا القول إيمانويل كانط، كما اعتمد آخرون على الحَدس، والتّأمُّل الباطني، كوسيلةٍ في الوصول إلى المعرفة، وزعيم هذا الاتّجاه هو هنري برجسون[٣٤]، ويُمثّله في الفِكر الإسلامي الصوفيّة، وأتباع الفلسفة الإشراقيّة[٣٥]، مُستخدمين ألفاظاً تدلُ غلى ذلك، كالكشف، والإلهام[٣٦].

---

[٣١]) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالِم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، ولد بِقُرْطُبَة سنة ٣٨٤هـ، كانت له ولأبيه مِن قَبْلِه رِياسةُ الوِزارة وتدبيرُ المملكة؛ فَزَهِدَ بها وانصرف إلى العِلم والتّأليف، وكان يستنبط الأحكامَ مِن الكِتاب والسُّنّة، قيل: إنّه تَفَقَّهَ أَوَّلاً لِلشَافِعِيّ، ثُمَّ أَدَّاهُ اجْتِهَاده إِلَى القَوْل بنفِي القيَاس كُلّه، جَلِيّه وَخَفِيّه، وَالأَخْذ بِظَاهِرِ النَّصّ وَعمومِ الكِتَاب وَالحَدِيْث، ومِن أشهر مُصنّفاته " الفصل في الملل والأهواء والنحل"، وله " المحلى" في الفقه، وقد توفي في باديةٍ مِن بِلاد الأندلس سنة ٤٥٦ هـ. الأعلام، الزركلي ٤/ ٢٥٤، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٨/ ١٨٤، وانظر: طبقات علماء الحديث، ابن عبدالهادي ٣/ ٣٤١.

[٣٢]) الفِصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ١/ ١٤.

[٣٣]) ديفيد هيوم، فيلسوف مثالي إنجليزي، ولد عام ١٧١١م، وهو عالِم نفس، ومُؤرّخ، وعنده أنّ جميع الآراء في الموجودات تنطلق من التّجربة، وقد رفض جميع العقائد اللاهوتية عن الله، ويرى أنّ الدّين خطيرٌ على الأخلاقيّات والحياة الْمَدنيّة، ومِن أهمّ كُتبه "مبحث خاصّ بالفهم الإنساني"، ومات عام ١٧٧٦م. الموسوعة الفلسفية، مِن وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السُّوفياتيّين، بإشراف: روزنتال ، يُودين ص٥٧٠.

[٣٤]) هنري برجسون، يهودي فرنسي، وهو فيلسوف مثالي، ولد عام ١٨٥٩م، ويُعدُّ مُمثّل الحدسيّة، وآراؤه في الدّين يهوديّة، مع أنّه يُحاول إخفاء أُصولها، ومِن أهمّ كُتبه "المادّة والذّاكرة" و "التّطوّر الخالق"، ومات عام ١٩٤١م. موسوعة الفلسفة والفلاسفة،

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

والحقُّ أنّ الطريق الصحيح في تحصيل المعرفة لم يكن مُنحصراً بِوَاحدٍ مِن أصحاب هذه الأقوال، بل إنّ وسائل تحصيل المعرفة مُتنوّعة، وهي كذلك مُنسجمةٌ معَ بعضها؛ فلا تعارض بينها، يقول ابن تيمية:"فطُرق المعارف مُتنوّعةٌ في نفسِها، والمعرفة بالله أعظم المعارف، وطُرقُها أوسع وأعظم مِن غيرها؛ فمَن حصرها في طريق مُعيّنٍ بِغير دليلٍ يُوجب نفياً عامّاً لِمَا سِوى تلك الطريق لم يُقبل منه؛ فإنّ النّافي عليه الدّليل، كما أنّ المُثبت عليه الدّليل"[٣٧]، وبيّن في مَوضعٍ آخر أنّها في الحسّ، والعقل، والخبر؛ فقال: " أكملُ الأُمم عِلماً المقرون بِالطُّرق الحسّية، والعقليّة، والخبريّة؛ فمَن كذّب بِطريقٍ منها فاتهُ مِن العُلوم بِحسب ما كذّب بهِ مِن تِلك الطُّرق"[٣٨]، وعليه فالذي يعتمد هذه الطرق المتنوّعة يكون أكمل عِلماً مِمّن حصر المعرفة في طريقٍ واحدٍ، دُون غيره.

المطلب الثاني :مفهوم المعرفة عند اسبينوزا

لقد دأبَ اسبينوزا في توضيح مُراده بِالمعرفة، إلى الدّعوة لِإصلاح الأنماط التي يتعامل بها الإنسان معَ ما حوله في الطبيعة، سواءٌ كان مِن خِلال التّجارب الحسيّة، أو في طُرق التّفكير والتحليل، والتي يعدُّ رُكْنَها الأساس في الإدراك السّليم، وعليه فاسبينوزا يرى أنّ مفهوم المعرفة قائمٌ على الإدراك الصحيح، ولذا تجِدُهُ عِند تِعدَاده لِدرجات المعرفة الأربعة حسْب رُؤيته، يُسمّيها بِالإدراكات؛ فهو يربط ربطاً تامّاً بين المعرفة لِقُدراته وطبيعتِه، وبين أنواع الإدراكات التي يستعملها، يقول في بيان ذلك: "يتطلّب النّظام الطبيعي لِلأشياء أنْ أستعرِض كُلَّ ضُرُوب الإدراك التي استعملتها إلى حدّ الآن؛ لِلإثبات أو النّفي بِأمان، حتى أختار أفضلها وأشْرع في الوقت نفسهِ في معرفة قُدراتي، ومعرفة طبيعتي التي أرغب في السُّمُوّ بها غلى المُستوى

عبدالمنعم الحفني ١/ ٢٧٦، الموسوعة الفلسفية، مِن وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السُّوفياتيّين، بإشراف: روزنتال ، يُودين ص٧٨.

[٣٥] الفلسفة الإشراقية، وتُسمّى المشرقية، من الإشراق - أي إشراق النّفس واستعدادها - وهي تجمع بين الفلسفة والتّصوف، وكان على رأسها السَّهْرَوَرْدِي المقتول سنة ٥٨٧هـ، وأشهر كُتبه: "حكمة الأشراف"، وهذه الفلسفة تُنال عندهم بِالحدْس، والإلهام، وموضوعُها العلومُ الإلهيّة. انظر: مصطلحات في كتب العقائد، الدكتور محمد بن إبراهيم الحمد ص١٠١، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، الدكتور عبد الرحمن المحمود ٦٥٦/٢.

[٣٦] انظر: مدخل إلى نظرية المعرفة، أحمد الكرساوي ص٨١ - ١١٧.

[٣٧] درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٨/ ٤٦.

[٣٨] المرجع السابق ١/ ١٧٩.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الكَمَال"[٣٩]، ولَمَّا انتهى مِن بيان هذه الضُّروب الأربعة في الإدراك قال: "والآن بعد أنْ عَرَفنا أيّ نوعٍ مِن المعرفة يلزمُنا، يجبُ أن نُشير إلى السّبيل والْمَنهج اللّذَين سيقُودانِنا إلى معرفَة الأشياء الواجب معرفتُها بِهذا النّوع مِن المعرفة"[٤٠].

ولقد انطلق اسبينوزا في نظرته لِمعارف الإنسان، وأفعاله، وتصرُّفاته حسب المنهج العام الذي سار عليه في فلسفته ككُلّ، حيث القوانين الصّارمة والحتميّة الْمُتحكّمة في كُل ما يحدث داخل الطبيعة، ومع أنّ الإنسان يُشكّل مخلوقاً واعياً بِما أُوتي مِن عقل وقوةٍ في الإدراك، غير أنّ هناك العديد مِن الانفعالات تعترض سُلُوكَه بصُورةٍ كبيرة، لكن كُلّما تمكّن العقل مِن العِلم والفهم الْمُتزايد لِلنظام الطبيعي، حَتْمَاً عندها سيستطيع ضبطَ انفعالاته، وتوجيه نفسه، بِسنّ القوانين لها؛ ليُحرّرها مِن التأثيرات السلبيّة التي قد تُهدّد سُلُوكَه، ومِن هذا الْمُنطلق فإنّ اسبينوزا بادئ ذي بدء يرى أنّ الطريق الأمثل لِلمعرفة، والوصول للإدراك النّافع لرؤية الأشياء رؤيةً صائبة، لا بُدّ أن تكون بِدايتها مِن العقل في تهيئته للنّظرة الصحيحة؛ فالمعرفة الحقّة ولذّة الفهم لا بُدّ لها "قبل كُلّ شيء مِن التّفكير في وسيلةٍ لِشِفاءِ العقل وتطهيرِه قدْر الإمكان حتى يُوفَّق في إدراك الأُمور على أحسْن وجهٍ ودُونما خطأ"[٤١].

وبالتالي فاسبينوزا كان يسعى جاهداً في إصلاح العقل، بِناءً على عقيدته في وحدة الوجود، واندماج الله في الطبيعة، إلى أن يرتقي الإنسانُ في وعيه، ويتمُّ اقترانُ معرفته للأشياء بمعرفة الإله للأشياء، وهو بذلك يُعارض غيره مِن الفلاسفة، مثل ديكارت، والذين "ينطلقون مِن معرفة الأشياء ويرتقون إلى معرفة الله"[٤٢]، حيث عَكَسَ طريقتَهم؛ فبدْأ بالإله أوّلاً ثُمّ نزل إلى الإنسان ثانياً، مُؤكّداً على أنّ "العلم الصحيح ينهَج مِن العلّة إلى الْمَعلول"[٤٣]، ويُعلّل ذلك بعضُ الباحثين بِأنّ هذا القَلْبَ لم يكن اعتباطاً، بل إنّه يُوحي مِن خِلاله إلى أنّ "الشُّروع بالبحث في الله هو مَبدَأُ نُشوء المعرفة الإنسانية وتكوُّناتها"[٤٤]، حيث تتشكّل العقيدة الاسبينوزية في الإله بِأنّ كُلّ شيءٍ مُندَمجٌ في الله، ومِن دُونه لا يُوجد شيء، وهو بذلك يسعى لاندماج عقل الإنسان الْمُتناهي بعقل الله غير الْمُتناهي؛ لِيُشكّل ذلك نُقطة انطلاق في مسيرة العقل المعرفية، ولِيصل بعدها إلى ما سمّاه بالكمال الإنساني الأعظم[٤٥].

---

[٣٩]) رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣١.
[٤٠]) المرجع السابق ص٣٥.
[٤١]) رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣١.
[٤٢]) انظر: مقدمة رسالة في إصلاح العقل، لاسبينوزا، جلال الدين سعيد ص١٦.
[٤٣]) رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٥٤.
[٤٤]) انظر: مقدمة علم الأخلاق، لاسبينوزا، جلال الدين سعيد ص١٩.
[٤٥]) انظر: رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣١.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

إنّ مِن أوائل التّساؤلات التي ترِد على موضوع المعرفة عند اسبينوزا هو كيف يتمكّن العقل مِن معرفة العالم الخارجي، مَع كَونه مُرتبطٌ بالجِسم؟، وكذلك كيف تتمُّ له معرفة شيئٍ آخَر غير جِسْمِه، بِكُلّ ما تتعلّق بهِ مِن أفكار؟؛ فيُجاب عن ذلك بِأنّ الحالة النّفسيّة في جميع لَحَظاتِها ما هِيَ إلاّ مُركّبٌ ممزوجٌ بين طبيعة الجسم، والعقل الخاصّ بهِ، وكذلك مِن حالة البيئة الْمُصاحبة له، والْمُحيطة به، والتي لا شكّ أنّه يتأثّر بها، ويتغيّر مِن خِلالها، وبناءً عليه فإنّه إذا عرَف الإنسانُ نفسَه؛ فسيعرف ما تتوارد عليها مِن أفكار، وستُضفي عليه تجربتهُ أيضاً إثراءً معرفيّاً كبيراً، جَرّاء اتّصال جِسمه بِالبيئة الْمُحيطة[٤٦].

واسبينوزا يُؤكّد على أنّه لا تُوجد مُطابَقةٌ بين الأفكار والأشياء، بل يذهب إلى أنّ الأفكار هي نفسُ الأشياء وذاتُها، ويتبيّن ذلك مِن خِلال نَظَر الذِّهن لها؛ فالأفكار وجهٌ مِن أوجه الوُجُود في واقعيّته، وعليه فليس هُناك فِكرةٌ وموضوع، بل هُما عِبارةٌ عن حقيقةٍ واحدة، تُرَى مِن ناحيةٍ فِكرة، وتُرَى مِن أُخرى أنّها مَوضوعاً[٤٧]، وقد علّق بعضُ الباحثين على هذه المعنى بِقَوله:"والمعنى الصّادقُ حقيقيٌّ مَوضوعيّ، فإنّ الْمُطابقة تامّةٌ بين العقل الحاصل على معانٍ واضحةٍ مُتميّزة، وبين الوجود.. فالفِكر صادقٌ، ومَوضوعيٌّ،كُلّما تحقّق فيه المعنى تحققًا كُليًّاً فأثبت نفسَه بِنَفْسِه، أمّا التَّخيُّل فيُعْلَمُ أنّهُ كذلك مِن عدمِ تعيُّن مَوضُوعِه؛ إذْ نستطيع أنْ نتخيّلَه مَوجُودًا أو غير مَوجُود، أو أنْ نُضِيفَ إليه كذا أو كذا مِن الصّفاتِ الْمُتضادّة"[٤٨]، ولذلك فاسبينوزا يرى أنّ الفِكرة الصحيحة تتلبّس بِأقصى درجةٍ مِن اليقين، إذ إنّ وُجُود فِكرةٍ صحيحةٍ دليلٌ على أفضل معرفةٍ مُمكنةٍ لِلشيء[٤٩].

وأمّا المنهج السّليم في التّعامل مع الأفكار في نَظَر اسبينوزا، فإنّه يبدأُ مِن تمييز الفِكرة الصحيحة عن غيرها مِن الإدراكات، بِناءً على قواعد مُعيّنة، وهو يرى أنّ الفكرة تكون صحيحةً إذا كان "موضوع الفكرة تابعٌ لِقُوّة تفكيرِنا، وليس ثَمَّة موضوعٌ مُناسبٌ لها في الطبيعة"[٥٠]، وعليه فإنّ العِلّةَ الْمُتلبّسة في التفكير الصحيح لم تنشأْ مِن خارجِ نِطاق العقل وطبيعته، أو كانت مُتوقّفةً على موضوعٍ خارجيّ، بل يُبحث عن صُورة التّفكير الصّادق مِن داخِل مُحيط التّفكير ذاتِه، ويكُون مُستَنْبَطاً مِن طبيعة العقل، لا غَير[٥١]، ويوضّح هذا المعنى يوسف كَرم بِقَوله: "فالمعنى الصادق يقينيٌّ

---

(٤٦) انظر: موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي ١/ ١٤١.
(٤٧) انظر: اسبينوزا، فؤاد زكريا ص٧٠.
(٤٨) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٩، ١١٠.
(٤٩) انظر: اسبينوزا، فؤاد زكريا ص٧٠.
(٥٠) رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٤٩.
(٥١) انظر: المرجع السابق ص٤٩.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

بِذاتِه، لا يتعلّق صِدْقُهُ بِعَلامَةٍ خارجيّة، إذْ إنّ الذِّهْنَ الحاصل عليه يَعْلَمُ بِالضّرورة أنّهُ صادق، ولا يستطيع أن يشُكَّ فيه، ولا يطْلُب لهُ ضَمَانًا"[٥٢].

ويرى اسبينوزا أيضاً أنّ الفِكرة الصحيحةً فِكْرَةٌ بسيطةٌ "تترك في النفس آثاراً مَوضوعيّةً مُكافِئَةً لِمَاهِيّة مَوضُوعِها الصُّوريّة"[٥٣]، حيث إنّ البساطة تُعدُّ علامةً تُعرَف بها المعاني الصّادقة؛ ذلك أنّ المعنى البسيط يستحيلُ كَونُهُ مَعلوماً مِن جِهةٍ، مَجهولاً مِن أُخرى[٥٤]،

ويشترط اسبينوزا أيضاً لِلفِكرة الصحيحة والتّامّة كَونُها واضحةً ومُتميّزة، ويجعل ذلك مِعياراً لا بُدّ مِنه؛ فلم يكتفِ بِالوُضوح فقط، بل لا بُدّ مِن أن تكون مَعَ وُضُوحها مُتميّزةَ أيضاً، بِأنْ تكون "أفكاراً تنجِمُ عن الفِكر المَحض، لا عن حركات الجِسم الطّارِئة"[٥٥]، حيثُ إنّ الفكرة رُبّما كانت واضحةً، لكنّها لم تكُن مُتميّزة، وأمّا إذا كانت مُتميّزةً؛ فَحَتماً ستكونُ واضحة، وهذا ما عبّر عنه اسبينوزا بِقَولِه: "بِقَدْرِ ما تكون الفكرة مخصوصة، تكون مُتميّزة، وبِالتّالي واضحة"[٥٦].

ولِلتمييز عند اسبينوزا بين الأفكار الصحيحة والأفكار الخاطئة فقد ذهب إلى أنّ الأفكار مُتباينةٌ فيما بينها، حيث بعضُها أكثر وُضوحاً مِن البعض الآخَر، غير أنّ الفِكرة الْمُتميّزة والأوضح في موضوعها عنده هي أصدق مِن الفِكرة الغامضة، وستَحِلُّ هذه الفِكرة الْمُتميّزة في مَوضِعها الْمُناسب في منظومة النّظام الضروري للأفكار، والذي تنطلِق منه حقيقة نِظام الكَون، وبالتالي فالعقل في النّظام الْمَعرفي عند اسبينوزا كفيلٌ بِأنْ يُمسِك بِزمام التّمييز بين هذه الأفكار، ويُرتّب دَرجة وُضُوحها وتميُّزها[٥٧].

وبالنِّسبة لِلخطأ الواقِع في هذه الأفكار فليس لِلعقل عند اسبينوزا يدٌّ في وُقُوعه، وهو بِذلك يُبرّئُ العقل تماماً مِن التّسبُّب به، لكنّه يرى سبَبهُ في التّجربة الحِسّية، وأحياناً يُطلِق عليها الخَيال، حيث يتأثّر هذا الخَيال بالبيئة الْمُحيطة؛ فلا يستطيع الحُصول على الصُّورة الصحيحة لِلفِكرة، بل تأتي مُشوَّشةً بسبب ما اعْتراها مِن تغيُّراتٍ نَجَمَت بِفِعْلِ الأجسام الخارجيّة، وعليه فمهما كانت البَوَاعِثُ لِهذه الصُّور الحِسّية؛ فإنّها وبلا شكّ تُخفِق في تصوُّر الفِكرة بِصُورةٍ واضحة، كما تُخفِق أيضاً في

---

(٥٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٩.
(٥٣) رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٥٤.
(٥٤) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٩.
(٥٥) رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٥٦.
(٥٦) رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٥٨.
(٥٧) انظر: موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي ١/ ١٤١.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

التّعبير عن تِلكم الأفكار[٥٨]، ولذا فهو يُؤكّد على أنّ النّفس كُلما كانت أشدُّ تهيئةً في باطِنها نَظَرَت إلى الأشياء بِتميُّزٍ ووُضوح، على خِلاف ما إذا كانت مدفوعةً مِن الخارج بِحسب الأحداث الطارئة عليها والْمُحيطة بها؛ فهذا مِمّا يُنقِص المعرفة التّامّة لديها[٥٩].

وفي مُقابل الفكرة الصحيحة القائمة على الإيجابيّة فإنّ اسبينوزا يرى أنّ الفِكرة الخاطئة لا تعدو إلاّ أن تكون سلباً أو عَدَماً لا غير؛ فلا يرى في التّصوُّر الخاطئ أيَّ إيجابية، وقد بيّن هذا المعنى بقوله: "ليس في الأفكار مِن أمْرٍ إيجابيٌّ نقول بِمُقتضاه إنّها باطلة"[٦٠].

ولَمَّا رأى في البُطلان انعدام الإيجابيّة، أكّد الْمُراد بِالبُطلان بِأنّه فُقدانُ المعرفة وزوالُها؛ فقال: "يتمثّل البطلانُ في عدم المعرفة الذي تنطوي عليه الأفكار غير التّامّة لِلأشياء، أي المبتورة والمختلطة"[٦١]، وهذا النّظرة الاسبينوزية لِلفِكرة الخاطئة في عدميّتِها وسلبيّتها تتماشى تماماً مع نظرته الفلسفيّة لِلفِكرة الصحيحة الْمُعبّرة عن إيجابيّة الوُجُود[٦٢].

المطلب الثالث :أنواع المعرفة عند اسبينوزا

مِن أجل بيان الفرق بين البُطلان والحقيقة، ولِلتّمييز بين الأفكار الصحيحة والخاطئة؛ فإنّ اسبينوزا يعرِض لِلمعرفة أنواعاً عِدّة، وضُروباً مُختلفة، وقد تقدّم في المطلب السّابق أنّه سعى قبل كلامه عن المعرفة، والأفكار الصحيحة والخاطئة إلى أنّه يجب التّفكير أوّلاً في وسيلةٍ لِشِفاء العقل وتطهيرِه، مِن أجل أن تسهُل عليه معرفةُ الأشياء ويُجيدُها، وهذه الوسيلةُ تكمُن في التّمييز بين أنواع المعرفة، والتيقُّن مِن قِيمة كُلٍّ مِنها؛ لِلوصول إلى المعرفة السّليمة، بحيث لا نأْخذ مِن هذه الأنواع إلا أقومُها وأوْثقُها[٦٣].

وبناءً عليه فقد أوْرَدَ أنواع المعرفة في كِتابين مِن مُؤلّفاته، لكنّه مايَزَ بينهما في ذِكْر الأنواع وتَعدَادها، حيث مَيَّز في كِتابه "إصلاح العقل" بعد تأمُّله وإمعان النّظر بين مُستوياتٍ أربعةٍ لِلإدراك:

---

(٥٨) انظر: المرجع السابق ١/ ١٤١.
(٥٩) انظر: علم الأخلاق، اسبينوزا ص١١٧.
(٦٠) المرجع السابق ص١١٩.
(٦١) المرجع السابق ص١٢٠.
(٦٢) انظر: اسبينوزا، فؤاد زكريا ص٧١.
(٦٣) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٨، قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود ص١٤٥.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

القِسم الأوّل: معرفةٌ سماعيّةٌ تصل إلينا بِواسطة السَّمَاع، ويُمثّل عليها قائلاً: "فأنا أعرف عن طريق السَّمْعِ فقط يوم وِلادتي، ومَنْ والِدَيَّ، وأشياءَ أُخرى ما شَكَكْتُ فيها أبداً"[٦٤]، وهذه معرفةٌ غيرُ عِلْمِيّة؛ فَفَضْلاً عن كَون هذا القِسم مَشكوكٌ فيه فإنّه لن يُتيح لنا أن نُدرك ماهيّة أيّ شيءٍ بِمُجرّد السّمع فقط، بل لابُدّ مِن نشاطٍ عقليٍّ سابِق[٦٥]، ويرى بعض الباحثين أنّ مُعظم كِتابات اسبينوزا في ذِكره لأنواع المعرفة يقوم فيه بِدَمْجِ هذا النّوع مع الثاني؛ لِيُكوّنا نوعاً واحدا[٦٦].

القِسم الثاني: معرفةٌ بِالتّجربة الغامضة، أو كما يُسمّيها بِالْمُبهمَة، ومِثل هذه المعرفة تُدرَك فيها الجُزيئات مِن خِلال الحواسّ فقط، مِن غير أن يتمّ عرْضُها على العقل لِلاختبار والتّمحيص، وإنّما كان سببُ قَبُولها هو عدمُ ما يُضادُّها في العقل ويُناقِضُها؛ فينشأُ في الذِّهْن بِناءً على ذلك أفكارٌ مُتقاربةٌ معَ حالاتٍ أُخرى مُشابهة[٦٧]، ويُمثّل على هذا النّوع مِن المعرفة بِقَوله: "وأعرف بالتجربة الْمُبهَمَة أنّني ساموت، وإنْ كِدّتُ أُؤكِّد ذلك فَلِكَوْنِي شاهدتُ أمثالي يموتون، معَ أنّهم لم يعيشوا كُلُّهم نفْسَ الفترة مِن الزّمن، ولم تكُن نِهايتُهم بِسَبب مَرضٍ واحد، وأعرف بِالتّجربة الْمُبهَمَة أيضاً أنّ الزيت وقود لِلنّار، وأنّ الماء يُطفِئُها، وأنّ الكلب حيوانٌ نابِحٌ، والإنسان حيوانٌ ناطِق، وعلى نَحْو ذلك تعلّمتُ مُعظَم الأشياء التي تُستَخدَم في الحياة العَمَليّة"[٦٨].

والسبب في تسميته لها بِالْمُبهمة؛ لأنّ العقل ليس لهُ يدٌ في تحديدِها، حيث وقعت اتّفاقاً، ولم تُخالفها أيُّ تجربة؛ فتمّ لها الرُّسوخ في الذِّهن[٦٩]، لكنّ هذه المعرفة مُتفرّقةٌ مُهَلْهَلَة؛ إذ إنّ سبب تأصُّل الاعتقاد بِمِثل هذه الأفكار وشَبيهاتها هو أنّنا فقط لم نجد مُعارِضاً لها مِن الظّواهر الْمُشابهة، مِن غير أن يُوجد لدينا دليلٌ يُثبت لنا عدمَ وُجُود مِثل هذهِ الظّواهر[٧٠]، لكن لا بُدّ هُنا مِن التّنبيه إلى أنّ اسبينوزا لا يُلغي فائدة هذا النّوع مِن المعرفة، بل يذكر أنّه يعرف بهذه المعرفة جميعَ الأشياء الْمُفيدة في الحياة[٧١].

القِسم الثالث: معرفةٌ عقليّةٌ استدلالية، تَسْتَنْتِجُ شيئًا مِن شيء؛ فهي إدراكٌ ناجِمٌ عن كَون ماهيّة شيءٍ مَا مُستنتَجةٌ مِن ماهيّة شيءٍ آخَر، ولكن بِطريقةٍ غير مُكافِئة؛ فيعرف

---

[٦٤] رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣٢.
[٦٥] انظر: المرجع السابق ص٣٤.
[٦٦] انظر: اسبينوزا، فؤاد زكريا ص٧٢.
[٦٧] انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٩، اسبينوزا، فؤاد زكريا ص٧٢.
[٦٨] رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣٢.
[٦٩] انظر: المرجع السابق ص٣٢.
[٧٠] انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٨ ، تيارات فلسفية حديثة، علي عبد المعطي محمد ١/ ١٨٧.
[٧١] انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، فردريك كوبستون ص٣١٩.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الشَّخْصُ مثلاً أنَّ حادثاً مَا له عِلّة، لكنّه لا يملك فِكرةً بيّنةً وواضحةً عن هذه العِلّة، ولا عن الارتباط بين العِلّة والمعلول[٧٢]؛ فهذه المعرفة تتمثّل في الاستدلال مِن المعلول على العِلّة، بِأَنْ نستنبط العِلّة مِن المعلول، مِن غير أنّ نُدرك النّحْوَ الذي تُحْدِثُ عليه العِلّةُ المعلول، أو هي معرفةٌ تُطَبّقُ قضيّةً عامّة، وقاعدةً كُلّيةً على حالةٍ جزئية، انطلاقاً مِن صفةٍ وخاصيّةٍ مَا تُلازمُ تلك القاعدة العامّة[٧٣]، ويُمثّل على هذا النّوع مِن المعرفة بِقَوله:"وكذا الشأنُ عندما نتعرّف على طبيعة الإبصار وعلى إحدى خصائصه التي تجعلنا نرى الشيء، إذا نظرنا إليه مِن بعيد، أصغر مِمّا يكون لو نظرنا إليه مِن قريب؛ فنستنتج من ذلك أنّ الشمس أعظم مِمّا تبدو لنا"[٧٤]؛ فقد استدلّ بِهذه المعرفة الْمُستمدّة مِن خصائص الإبصار على حجم الشمس الحقيقي والْمُخالِف لِما تراه العينُ الْمُجرّدة.

وهذه المعرفة يقينيّة في كَونِها قدّمَت لنا فِكرة الشيء، وسَمَحت لنا باستخلاص الفِكرة بِيقين، وبِسلامةٍ مِن الوقوع في الخطأ، ولكنّها هي أيضًا مُتفرقةٌ، لا رابطة بين أجزائها؛ فهي لا تُفيد بِذاتها بُلُوغ الكَمَال، وهي ناقصةٌ أيضاً مِن جِهة أنّه لا يُمكن الاعتماد عليها؛ لِفَقْدِها أهمَّ مِيزتين لِلمعرفة اليقينيّة الكاملة، وهي الوضوح والتميُّز[٧٥].

القِسم الرابع: معرفةٌ عقليّةٌ بِماهيّة الشيء، أو عبْر معرفة عِلّته القريبة، مثل معرفتنا أنّ النفس مُتّحِدَةٌ بِالجِسم، بناءً على معرفتنا لِمَاهِيّة النَّفْس، أو مثل المعرفة بِأنّ الخَطَّيْن الْمُوازِيَيْن لِثالثٍ مُتوازيان فيما بينهما، وغير ذلك[٧٦].

وهذه المعرفة الأخيرة عند اسبينوزا هي الكاملة، والتي يُدْرَك بها تمامُ ماهيّة الشيء، مِن غير خشية الوُقُوع في الخطأ؛ بسبب أنّ موضوعاتها معانٍ واضحةٌ ومُتميزةٌ يُكَوّنُها العقل بِذَاته، ويُنشئُ مُنطلِقاً مِنها سِلْسِلَةً مُرتّبةً مِن الحقائق، وتكون هذه الحقائق الجُزئية نتيجةً لِقَانُونٍ كُلّيّ، ونجد هذا النّوع مِن المعرفة مُتوافرٌ في الرّياضيّات، لكنّ اسبينوزا يعترف بِأنّ الأُمور التي استطاع معرفتها على هذا

---

[٧٢] انظر: رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣٢، موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي ١/ ١٤٢.

[٧٣] انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٩، اسبينوزا، فؤاد زكريا ص٧٢.

[٧٤] رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣٣.

[٧٥] انظر: المرجع السابق ص٣٥، تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٩، تيارات فلسفية حديثة، علي عبد المعطي محمد ١/ ١٨٧.

[٧٦] انظر: رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣٣، تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٩.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الْمُستوى قليلةٌ جِدّاً، غير أنّ العقل في هذا النّوع يُبِينُ عن كَونِهِ مُستقلاً عن تأثير الْمُخَيّلة والحواسّ[٧٧].

وأمّا في في كِتابه "الأخلاق" فقد مَيَّز اسبينوزا بين ثلاثة مُستوياتٍ لِلمعرفة، وقد صار كثيرٌ مِن الْمُؤرّخين في حديثهم عن الفلسفة الاسبينوزية يقتصرون على هذه الْمُستويات الثلاثة المذكورة في كِتاب "الأخلاق"، مُسْقِطِين القِسم الأول مِن ضُروب المعرفة التي جاء ذِكْرها في كتاب "إصلاح العقل"، وهي المعرفة السّماعيّة، حيث يرونها معرفةً غير عِلميّة، ومشكوكٌ فيها، إذ إنّ السّمع ليس طريقاً لإدراك ماهيّة الأشياء، حيث لا يعتمد على أيّ نشاطٍ عقليّ سابِق[٧٨].

وبناءً على ذلك فقد جاءت مُستويات المعرفة الثّلاثة في كِتاب "الأخلاق" على النّحو التالي[٧٩]:

القِسم الأول: معرفةٌ بِوَاسطة "الخيال"، أو الظنّ، حيث يرى اسبينوزا بأنّ مِن طبيعة الجِسم أن يتأثّر بأجسامٍ أُخرى، وجميع ما يعرِض له مِن التغيُّر هو بلا شكّ مُؤثِّرٌ كبيرٌ ينعكس في ذات الفِكر وطبيعته، والأفكار مِن هذا النّوع لها تكافؤٌ مع أفكارٍ مُستَلَّةٍ مِن الإحساس، وإن كان هذا التكافؤُ مُتفاوتُ الدّرجات؛ فهذه الأفكار يُطلِق عليها اسبينوزا أفكارَ الخيال، حيث إنّ وُرُودها على الفِكر لم يكن بطريقةٍ مَنطقيّة، وعليه فالعقل في تفاعُله معَ هذه الأفكار التي أَمْلتها الْمُخيّلة يكون مُنفعلاً، لا فاعِلاً، بسبب أنّ توارد هذه الأفكار لم يكُن انبثاقُه بِواسطة قُوّة العقل الفعّالة، بل بِسبب مُتغيّراتٍ أُخرى، إمّا في داخل الجِسم، أو أَحْدَثَتْها أجسامٌ أُخرى[٨٠].

القِسم الثاني: معرفةٌ علميّةٌ يُطلِق عليها اسبينوزا اسم مُستوى "العقل"، وذلك للتمييز بينه وبين النّوع الأوّل الذي أطلق عليه اسم الخيال، أو التّخيُّل، وهذه المعرفة ليست خاصّةً بِالعُلماء فقط، بل تقع لِسائر النّاس، حيث إنّ النّاس جميعاً تتكوّن عندهم الأفكار التامّة، وجميع العُقول تعكس شيئاً مِن الخواصّ السائدة في الطبيعة الْمُمتدّة[٨١].

وهذا المعرفة صحيحةٌ بِالضّرورة، والعِلّة في ذلك هو كَونُها تقوم على الفِكرة التامّة التي تحوي جميع خصائص الفِكرة الصحيحة[٨٢].

---

[٧٧]) انظر: رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣٥، موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي ١/ ١٤٢، تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٩.

[٧٨]) انظر: رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣٤ ، موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي ١/ ١٤٢.

[٧٩]) انظر: علم الأخلاق، اسبينوزا ص١٢٦.

[٨٠]) انظر: موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي ١/ ١٤٢.

[٨١]) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، فردريك كوبستون ص٣٢٠.

[٨٢]) انظر: علم الأخلاق، اسبينوزا ص١٢٧.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

القِسم الثالث: معرفةٌ "حدسيّة"، أو كما يُسمّيها البعض بالعيانيّة[٨٣]، ويرى اسبينوزا أنّ العقل فيها "يرتقي من الفكرة التامّة لِلماهيّة الصُّوريّة لِبعض الصِّفات الإلهيّة إلى المعرفة التامّة لِماهيّة الأشياء"[٨٤]، وعليه ففي هذا الْمُستوى تصل النّفس إلى كمال المعرفة، حيث ترى في جميع الأجسام ذلك الامتداد الإلهي، وفي كُلّ فِكرةٍ الفِكر الإلهي[٨٥].

فهذه هي المعرفة الكاملة والتامّة عند اسبينوزا؛ بسبب أنّ موضوعاتها تُشكّل معانٍ واضحةً ومَتميّزة، يخلُقُها العقل بِذاته[٨٦]، وبالتالي ففضيلة العقل، وأعظم مجهودٍ يُقدّمه هو فَهْم الأشياء بِواسطة هذا النّوع من المعرفة[٨٧].

لكن مِن الْمُهمّ بيان أنّ هذا النّوع مِن المعرفة هو ناشيءٌ مِن النّوع الثاني، وهو "العقل"، وبناءً عليه فهذا النّوع الثالث الحدسيُّ في المعرفة ليس مُنفكاً عن سابقه، بل بينهما ترابطٌ واتّصال، ولذلك يرى اسبينوزا أنّه كُلّما ازددنا فهْمُنا لِلأشياء الفرديّة، كُلّما ازداد فَهْمُنا لِله[٨٨].

وعند الحديث عن النّوع الحدسي في أنواع المعرفة عند اسبينوزا؛ فلا يُمكن تجاهل ذلك الجدل الكبير لِشُرّاح اسبينوزا، في بيان مُراده بِالحَدْس، وهل يعني ذلك أن يحوي الفِكر الفلسفي الاسبينوزي على معنىً صُوفيٍّ أم لا؟، وقد أفاض في ذِكْر هذا الجدل فؤاد زكريا[٨٩] عند حديثه عن هذه الفقرة، بِذكْر الْمُثبتين لِلصوفية عند اسبينوزا، والنّافين لها، ثُمَّ قام بعد ذلك بِدحْض ونقد هذا الزّعم والافتراء، مبيّناً أنّ

---

(٨٣) انظر: موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي ١/ ١٤٢.

(٨٤) علم الأخلاق، اسبينوزا ص١٢٦، ١٢٧.

(٨٥) يُلاحَظ هُنا تأكيد اسبينوزا على صِفتي الامتداد والفكر الإلهيين، حيث يُثبتهما صِفتان لِلإله؛ بحجة أنّ العقل لا يستطيع إلا إثبات هاتين الصّفتين فقط، وسيأتي التّوسُّع في ذِكْر هاتين الصّفتين في المبحث الأول مِن الفصل الأول في الباب الثالث، عند بيان أثره في النّظرة لِلأُلوهية.

(٨٦) انظر: تيارات فلسفية حديثة، علي عبد المعطي محمد ١/ ١٨٦.

(٨٧) انظر: علم الأخلاق، اسبينوزا ص٣٣٦، تاريخ الفلسفة الحديثة، فردريك كوبستون ص٣٢٣.

(٨٨) انظر: علم الأخلاق، اسبينوزا ص٣٣٦.

(٨٩) أكاديميٌّ مِصريٌّ، ولد عام ١٩٢٧م، وقد تَتلمَذَ في الفلسفة على يد أستاذه زكي نجيب محمود، وقد عمل فؤاد زكريا أستاذاً ورئيساً لقسم الفلسفة في جامعة عين شمس، وحاز العديد من الجوائز، وله مُؤلّفاتُ متعدّدة، مثل كتاب "التفكير العلمي" وكتاب "نيتشة"، وترجم عدداً من الكُتب، من أشهرها ترجمتُه لكتاب "حكمة الغرب، لبرتراند رسل"، وقد مات عام ٢٠١٠هـ. انظر: موقع مؤسسة هنداوي، (/https://www.hindawi.org/contributors/90639697).

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

انطلاق هذا النّوع الحدسي هو مِن صميم العقل، وليس تجاوزاً له، واقتحاماً لِما فوق العقل، بل هو تكملةٌ لِلعقل وتتويجاً له، مُعتمداً في ذلك على تأكيد اسبينوزا لارتباط هذا النّوع الحدسي بِالعقل، وبيان أهميّة العقل لِهذا النّوع مِن المعرفة، وبالتالي فالأوصاف التي قدّمها اسبينوزا لِلمعرفة الحدسيّة لا تُقلّل مِن شأن العقل، بل لا تعدو إلا أن تكون تعبيراً عن طريقةٍ أُخرى في استخدام العقل فقط، إذ كيف يتّصف اسبينوزا بالصوفية الْمُتجاوزة لِلعقل، وهو الذي لا تزال كِتاباته تُمجّد العقل، وتُقدّسه؟[٩٠].

ويُلازم هذا النوع الثالث عند اسبينوزا مُنتهى الرّضا، والارتياح النّفسي، إذ يقترب عنده العقلُ مِن خِلال هذا النّوع من المعرفة إلى رُؤية جميع الأشياء في الله؛ فكُلّما كان المرءُ أكثر تقدُّماً في هذه المعرفة، كُلّما ازداد وعيُه في الذّات الإلهية؛ فصار أكملَ غِبطة[٩١].

وبالتالي تنتهي نظرية المعرفة الاسبينوزية إلى الإقرار بِوحدة الوجود على الْمُستوى المعرفي، وذلك كما أراده اسبينوزا نفسُه، حيث يُعلنُ أنّ المعرفة عِلّة الحُبّ، ومتى ما تُعلِّم حُبُّ الله اتُّحد به بِالضّرورة، وعندها تتحقّق سعادة النّفس[٩٢].

---

(٩٠) انظر: اسبينوزا، فؤاد زكريا ص٧٣، ٧٤ ، موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي ١/ ١٤٢.

(٩١) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، فردريك كوبستون ص٣٢٣.

(٩٢) انظر: وحدة الوجود عند باروخ سبينوزا -دراسة تحليلية نقدية-، عَمّاري أيوب ص٩٦، تاريخ الفلسفة الحديثة، فردريك كوبستون ص٣٢٣ ، ٣٢٤.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

المراجع:

الموسوعة الفلسفية، مِن وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السُّوفياتيّين، بإشراف: روزنتال ، يُودين ص٤١٦ ، معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي ص٥٩٨.
انظر: نظرية المعرفة عند مُفكّري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، محمود زيدان ص٩ ، ١٧١.
الوحي والإنسان - قراءة معرفية، محمد السيد الجليند ص٤٦.
درجات المعرفة عند اسبينوزا، الدكتورة سوسان إلياس ص٢١٥ ، مجلة جامعة دمشق المجلد (٣٢)، العدد الأول، ٢٠١٦م.
جيمس فريدريك استكلندي، ولد في أدنبره عام ١٨٠٨م، وتأثر بهيجل وكانط وشلنج، وهو مِثالي، ومات عام ١٨٦٤م. موسوعة الفلسفة والفلاسفة، عبدالمنعم الحفني ٢/ ١٠٥٥.
الموسوعة الفلسفية، مِن وضع لجنة من العلماء والأكاديميّين السُّوفياتيّين، بإشراف: روزنتال ، يُودين ص٤٤٧.
نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، عادل السكري ص٣٢ ، عِلماً بأن هناك مِن الباحثين مَن يُؤكّد السّبق لِعلماء الْمُسلمين على الفلاسفة الغربيّين في إفراد بحث المعرفة بصورة مُستقلّة في كُتبهم، مثل ما ألّفه القاضي عبدالجبار في كِتابه "النّظر والمعارف" مُتحدّثاً فيه عن حدّ النّظر والعِلم، والمعرفة وطُرقها وحقيقتها، ومثل مقدمة كتاب "التّمهيد"، لِلباقلاني؛ ففيه حديثٌ عن العلم وأقسامه وطُرقه، وغيرهم كثير. وللمزيد يُنظر: نظرية الفلسفة بين القرآن والفلسفة، راجح الكردي ص٦٤ ، ٦٥.
نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، محمود زيدان ص ١٤، ١٧.
نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، عادل السكري ص٢٧.
المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال، أبو حامد الغزالي ص٥١ ، ٥٢.
نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، محمود زيدان ص٢٧ - ٥٤، مدخل إلى نظرية المعرفة، أحمد الكرساوي ص٤٩ -٥٤ .
درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٣/ ٣١٠.
تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص١٠٨، قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود ص١٤٥.
رسالة في إصلاح العقل، اسبينوزا ص٣٢، موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي ١/ ١٤٢.
وحدة الوجود عند باروخ سبينوزا -دراسة تحليلية نقدية-، عَمّاري أيوب ص٩٦، تاريخ الفلسفة الحديثة، فردريك كوبستون ص٣٢٣ ، ٣٢٤.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X